

أمدكول في المخططات التوسعية البرتغالية (ق 16 م)

أحمد بوشرب

كلية الآداب والعلوم الانسانية
المحمدية

لم يطل استقرار البرتغاليين بموقع أمكدول. فمن المعلوم انهم احتلوه خلال سنة 1607، وانهم أكرهوا على إخلائه بعد أربع سنوات. وبذلك يكون الموقع قد عرف أقصر مدة في تاريخ الغزو البرتغالي بالمغرب بعد المعمورة⁽¹⁾ التي احتلت لمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر خلال 1515.

ومعنى هذا أن الإشارات الواردة بالمصادر البرتغالية إلى الموقع في علاقته مع «التربول» من جهة، ومع المناطق المغربية الأخرى من جهة ثانية، ستكون بالضرورة قليلة، ذلك أن كثرة أو قلة الوثائق والمصادر مرتبطة بمدة الاحتلال، وأن ما وصلنا من وثائق برتغالية عن الثغور المغربية تغطي عليه التقارير ذات الطابع العسكري والتجاري التي بعثها ممثلو الملك ووكلاؤه.

كما أن قصر مدة إقامة البرتغاليين بالموقع لم تسمح بتأليف كالذي عرفته جل الثغور مهما كانت ثانوية. فقد دون الاخباري «دوزورارا» (Eanes de ZURARA) أخبار كل من سبتة⁽²⁾ والقصر الصغير⁽³⁾ في حين أرخ «رودريغش» (Bernardo)

(1) أي المهديّة الحاليّة بمصب سبو. أنظر الدراسة القيمة لـ

P.de CENIVAL et all. *Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc*. 1 ère série, Dynastie sa'dienne, Archives et bibliothèques de Portugal. tome 1, Paris, P.GEUTINER, 1934, pp 695 702.

Eanes de ZURARA, *Cronica do conde D.Pedro de Meneses*. Lisboa. 1790. 2 vol. (2)

Idem, *Cronica do conde D.Duarte de Meneses* Lisboa. Universidade Nova. 1978. (3)

(RODRIGUES) بتفصيل لأحداث أصيلا⁽⁴⁾، خلال احتلالها، وتوسع في ذكر العلاقات التي كانت تربطها بالمناطق المحيطة بها، سواء كانت عسكرية أو تجارية أو دينية... وخلف أحد جنود حامية أكدير، الذي عرف بداية متواضعة كأمكدول، مؤلفا عن أوضاع الحصن ونشاط حاميته وحروبها مع القبائل السوسية، ومع أنصار محمد الشيخ السعدي⁽⁵⁾.

وهكذا لم يصلنا عن أمكدول خلال احتلالها إلا عدد محدود من الوثائق التي يطغى عليها الطابع القانوني. فهذه الوثائق تخص ملكية الحصن المشيد، والحقوق والامتيازات المرتبطة بها، وتسجل كميات بعض المواد المستوردة للبناء، ولسد حاجيات البنائين والجنود.

وتجدر الإشارة إلى أن مؤلف الرحالة والملاح البرتغالي «بشيكو برير!» (Duarte Pacheco PEREIRA) يبقى، رغم قصر ما خص به أمكدول، المصدر الرئيسي بالنسبة لتاريخ استقرار البرتغاليين بالموقع وردود الفعل التي سببها⁽⁶⁾. وقد أسهم المؤرخ الفرنسي «دو سنيفال» (Pierre de CENIVAL) في التعريف بتاريخ الاحتلال البرتغالي لموقع أمكدول بنشره للعدد القليل من الوثائق التي وقف عليها بالأرشفيف البرتغالي، وبتقديمه لها بدراسة مهمة⁽⁷⁾ اعتمد فيها على كل الإشارات الواردة بمختلف الوثائق والمصادر المعروفة. وبذلك تبقى هذه الدراسة، على قصرها وافتقارها للمادة التاريخية، المرجع الرئيسي بالنسبة لكل من يرغب في دراسة تاريخ استقرار البرتغاليين بموقع أمكدول. وبالفعل كاد عملنا هذا أن يقتصر على المقال المذكور.

ومما لاشك فيه أن مدة إقامة البرتغاليين بموقع أمكدول ارتبطت بشكل مباشر بالأهمية التي كان يحظى بها لدى المسؤولين بلشبونة، وبالأدوار التي أكلوها إليه

(4) B.RODRIGUES; *Anal de Arzila*. édit. D. LOPES. Lisboa, Academia das Ciencias. 1915 1918.

(5) انظر تقديمنا لهذا المؤلف المنشور ضمن أعمال ندوة أكدير الكبرى. منشورات كلية الآداب أكدير

(6) D.Pacheco PEREIRA : *Esmeraldo de situ Orbis*. Lisboa; 1957, p 61

(7) P. de CENIVAL, «Mogador» in *Sources Inédites...* I, pp 120 127.

بعد احتلاله، وكذا بالظروف والأوضاع التي كان عليها الجنوب المغربي عموماً، ومنطقتنا حاحة والشياطمة بالخصوص.

فكيف كان موقع أمكدول قبل احتلاله، وما الذي جعل البرتغاليين يهتمون به ؟ لقد كان البكري — حسب علمنا — المؤلف الوحيد من بين كتاب القرون الوسطى الذي أشار إلى «أمكدول» ووصفه بـ «مرسى مشتى مأمون، وهو ساحل بلاد السوس»⁽⁸⁾.

وطبعاً لاتفيد إشارة كهذه في أخذ فكرة عن أهمية المرسى ونشاطها، كما أنها لاتفيد في تحديد مدى إشعاعه التجاري، لاسيما وأن كلمة السوس كانت آنذاك تشمل مناطق أوسع مما تعنيه اليوم، ولم تكن تقتصر على المنطقة المعروفة اليوم بهذا الاسم، ولاسيما كذلك وأنه لم يذكر أي شيء عن نشاط المرفأ والمنطقة، وإنما قصد من الإشارة إلى السوس تحديد الموقع فقط.

وقد تكرر ذكر الموقع في الخرائط البحرية الأوروبية ابتداء من القرن الرابع عشر، مع بعض الاختلاف في رسم الاسم، وإن لم يبعده عن أصله⁽⁹⁾ غير أن تلك الخرائط اقتصرت بالطبع على تحديد الموقع. وقد تعرض البحار البرتغالي بريرا، السابق الذكر، لاستقرار البرتغاليين بأمكدول وإخلاصهم له، وإن كان ذلك باختصار كبير، نظراً لنوعية المادة التي حملها لمؤلفه ذي الطابع الجغرافي المحض.

فقد ذكر أنه «في سنة 1506 ميلادية، أمر سموكم بتشديد حصن بساحل هذه القرية (Vila) المسماة أمكدول (Mogador)، عرف «بالحصن الملكي» (Castello Real). وقد شيده وحكمه بأمر منكم DIOGO D'AZAMBUJA، الفارس ببلاطكم... الذي حارب وتعرض مشروعه لكل أنواع المضايقات، وبكل الوسائل التي توفرت لدى الأعداد الهائلة من البرابرة والعرب الذين اجتمعوا لمهاجمة أولئك الذين أرسلوا لذلك الموقع لتشديد الحصن المذكور...»⁽¹⁰⁾.

(8) البكري/86

(9) «Mogdoul, Mongador, Mogadoire, etc.cf.P. de CENIVAL; Art.cit. p 120

(10) P.PEREIRA, 61.

ويستفاد مما أورده بريرا، إفادات كثيرة انفرد بذكرها :

التشديد :

يشير بريرا ! إلى أنه تم بأمر ملكي، وأن المنفذ لذلك ! الأمر شيد حصنا ولم يحتل مدينة أو تجمعاً سكنياً كان موجوداً هناك، كما حدث بباقي الثغور المغربية. كما أن التحكم في الموقع يختلف عما تم بالثغور الأخرى التي تطلب احتلالها تخطيطاً طويلاً وسرياً، ومئات القطع البحرية وآلاف الجنود⁽¹¹⁾. ومعنى هذا أن المكان المستهدف كان خالياً من أي بناء أو أي تجمع سكني يمكن للغزاة الاعتماد عليه، كما فعلوا بباقي الثغور التي احتلوها.

ومن جهة أخرى، تم التحكم في هذا الموقع اعتماداً على وسائل شخصية لنبل برتغالي تحمل المصاريف مقابل مجموعة من الامتيازات سنعود إليها. وقد سبق للشخص المكلف بهذه المهمة أن أشرف بأمر ملكي، على بناء حصن (São Gorge da Mina)، بساحل الذهب، بغرب إفريقيا، سنة 1481⁽¹²⁾

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحالة يخص تخلي السلطة المركزية بلشبونة، التي لم تكن تعوزها الوسائل، للمبادرة الفردية عن القيام بأدوار تعودت على تنفيذها بنفسها منذ انطلاق التوسع واحتكار التجارة وتأميمها⁽¹³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الملك البرتغالي سبق له أن أوكل، سنة قبل ذلك، إلى وكيله التجاري بماسة، (JOÃO LOPES DE SEQUEIRA)، مهمة التحكم في موقع فونتي الذي عرف احتلاله بـ (Santa Cruz do Cabo de Gue) أي «الصليب المقدس

D.LOPES, «Os Portugues em Marrocos» in : historia de PORTUGAL. Direct. D.Peres. (11) Barcelos, Portucalense Editora, tome 3. pp 385 et sq.

أحمد بوشرب دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور، البيضاء، دار الثقافة، 1984، ص 161 — 162.

D.LOPES, art.cit.pp 540 552. (12)

(13) انظر دراستنا «المخططات البرتغالية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر» ضمن الأعمال المهداة للأستاذ محمد المنوني تحت عنوان في النهضة والتراكم البيضاء، دارتوبقال، 1982 ص 183، 222

لرأس غير»⁽¹⁴⁾ وكان من المقرر أن يحتل موقع مازيغن بنفس الطريقة، إلا أن النبيل المكلف بالمهمة لم يتمكن، لعنف وفورية مقاومة السكان للمشروع، من تنفيذها⁽¹⁵⁾.

ولفهم هذا التحول في سياسة التوسع بالجنوب المغربي، وتبني سبل جديدة للسيطرة على سواحله، لابد من اعتبار عوامل خاصة بالبرتغال، وأخرى تخص تنافسه الحاد مع الإسبان حول السيطرة على جنوب المغرب، وعلى السواحل السوسية والصحراوية منها على وجه الخصوص⁽¹⁶⁾. كما يجب أخذ أوضاع المنطقة بعين الاعتبار.

لقد ارتبط المد البرتغالي بالجنوب المغربي بالسياسة التي تبناها إمنويل الأول (1494 — 1521) منذ مطلع القرن السادس عشر، والتي أدت، كما هو معلوم، إلى إحكام السيطرة البرتغالية على أهم المرافئ التي كانت مازال حرة كالمعمورة وآسفي وأزمور ومازيغن وفونتي وأمكندول خلال العقد الأولين من القرن 16⁽¹⁷⁾. وقد صادف هذا التحكم نجاح البرتغاليين في إنشاء إمبراطورية تجارية تركز على سواحل غرب إفريقيا والهند وموانئ شمالي غرب أوروبا، وخصوصا ميناء «أنفيس» Anvers ببلجيكا الحالية⁽¹⁸⁾.

وإذا كانت اعتبارات عسكرية واستراتيجية قد تحكمت في السيطرة على الثغور الشمالية المغربية⁽¹⁹⁾ فإن الاستفادة من تجارة غرب إفريقيا بالحصول على التبر والعبيد، فرضت على البرتغال التحكم في أهم مرافئ دكالة وعبدو والسوس، لما كانت تقدمه من سلع ضرورية للتبادل التجاري ببلاد السود، حيث كانت

(14) P.DE CENIVAL *Chronique de Santa Cruz du Cap de Gué. (Agadir) texte portugais du XVI è siècle.* Paris, P.Geuthner 1934, pp 21 et sq.

(15) P. de CENIVAL «L'origine de Mazagan» in : *Sources Inédites...* Ipp 103 et sq.

(16) P. de CENIVAL «Le partage des conquêtes entre l'Espagne et le Portugal» in : *Sources Inédites...* I,pp 203 212.

(17) D.LOPES, «Os Portugeses...» art.cit.pp 453 et sq.

(18) V.Magalhaes GODINIO : *L'économie de l'empire portugais aux XIV e et XVI e siècles.* (18) Paris, 1969.

(19) أحمد بوشرب : دكالة ص 161 وما بعدها

الأنسجة الصوفية الدكالية والحبوب والخيول إلخ تمثل أهم السلع وأكثرها رواجاً، كانت تضمن هناك أهم الأرباح. ويكفي التذكير هنا بأن الأنسجة الصوفية كانت أهم سلعة تقابض بالعبيد والذهب بغرب إفريقيا، إلى حد أنها أصبحت في الوثائق البرتغالية تعرف بأثواب أركان (Arguim)، نسبة إلى ذلك المركز التجاري المهم بالساحل الموريطاني⁽²⁰⁾.

وهكذا، ولاعتبارات سياسية (بعد المنطقة عن العاصمة الوطاسية، وتناحر قبائلها)⁽²¹⁾، وتجارية، الحنا إليها منذ وهلة، اضطرت السلطة المركزية بلشبونة إلى التخلي عن سياسة الاحتلال المباشر وتبني سياسة التوغل السلمي وخلق العملاء وفرض الحماية عليهم، ودفعهم إلى الاعتراف بسلطة التاج البرتغالي كما حدث بآسفي (قبل 1481)⁽²²⁾ وأزمور (1486)⁽²³⁾ وماسة (1497)⁽²⁴⁾. وقد كانت الغاية من هذه السياسة الجديدة تفادي احتلال عسكري يؤدي حتماً، كما تم ببيسة وطنجة وأصيلا، إلى تحويل تلك الحواضر التجارية إلى ثكنات عسكرية جامدة تعيش حالة حصار مستمر، وتثقل كاهل الخزينة البرتغالية. ومعلوم أن الوسائل التي سخرت للسيطرة على حواضر المغرب الشمالي، مهما كان وزنها التجاري والاقتصادي، كانت مخالفة.

ولكن، لماذا لم تتبن لشبونة نفس السياسة بكل من فونتي وأمكدول، وأوكلت إلى بعض الأفراد مهمة القيام بما اعتادت القيام به ؟

للإجابة على هذا السؤال، لابد من استحضار عاملين :

1) الفراغ السياسي الذي كانت تعاني منه المنطقة، وكونها لم تكن تهدد أمن

R.RICARD, «Le commerce de Berbérie et l'empire portugais». In, *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*. Coimbra, 1955, pp

أحمد بوشرب، دكالة، ص 114 — 115.

(21) اليفري، الزهرة، ص 10

D.LOPES, 463 et sq. P. de CENIVAL, «La conquête de Safi par les Portugais» Sources Inédites... I, pp 151 161. D.Pires de LIMA, *Histoire da dominação portuguesa de cafym*. Lisboa; 1930.

أحمد بوشرب : دكالة ص 174 وما بعدها

P. de CENIVAL, «La conquête d'Azemmour». Sources Inédites... I, pp 304 402. (23)

Sources Inédites... I, pp 31 et sq. (24)

واستقلال البرتغال، لبعدها النسبي ولانعدام نشاط جهادي قرصني بها. كما أن المنطقة كانت بعيدة عن نفوذ الوطاسيين، تتخبط في الحروب القبلية، ولم تكن بها حواضر ومراكز تجارية تذكر. فقد كان موقع فونتي قبل استقرار البرتغاليين به مجرد سوق أسبوعي بسيط، ولم يكن بموقع أمكدول عمران يذكر.

(2) المنافسة الإسبانية الممثلة في سكان الجزر الخالدات للبرتغاليين جنوب آسفي وإلخاحهم على أخذ موطيء قدم لهم بالساحل المقابل لجزرهم، وذلك رغم المعاهدات الموقعة بين الدولتين، والتي اعترف الإسبان بمقتضاها لجيرانهم بحق التوسع بالمغرب من غرب بادس حتى غرب إفريقيا⁽²⁵⁾. وقد احتدت المنافسة على الخصوص بشأن الساحل السوسي والصحراوي لأسباب تجارية ولثروته السمكية.

وبما أن الملك البرتغالي وقع معاهدة حماية مع سكان ماسة سنة 1497، فإن سكان الجزر الخالدات ردوا على ذلك باحتلال موقع فونتي سنة 1504 حيث استقروا إلى أن طردهم الماسيون منه بإيعاز من البرتغاليين.⁽²⁶⁾ وتفاديا لعودة الاسبان، سمح الملك البرتغالي لوكيله التجاري بماسة ببناء حصن على نفقته مقابل امتيازات حددها عقد موقع بين الطرفين. ويبدو أن الملك التجأ إلى هذه الوسيلة التي تثبت سبقه إلى الاستقرار بالموقع لسبيين على الأقل :

(1) احتكار المنطقة الممتدة جنوب رأس كونتي وآسفي، وإدماجها مع غرب إفريقيا⁽²⁷⁾ ضمن كتلة جغرافية واحدة لا تجزأ لتكاملها التجاري. ولن يتم ذلك إلا بإبعاد المنافسة الأوروبية والإسبانية على وجه الخصوص.

(2) ولتحقيق ذلك، دون إثارة الدولة الجارة، طالما أن اللجنة بالجنوب التي كان من المقرر أن تضم ممثلي البلدين لتحديد مناطق نفوذ كل منهما بالجنوب لم تجتمع، التجأت الدولة إلى بعض الأشخاص لإبعاد الصبغة الرسمية عن الاحتلال، ولإعطائه طابع المبادرة الشخصية التي لا دخل للدولة فيها.

P.de CENIVAL, «Le partage...» art.cit. (25)

Idem (26)

R.RICARD, «Le commerce...»,p 114 دكالة أحمد بوشرب (27)

وبذلك يكون الملك البرتغالي قد اعتمد على خدمات هؤلاء النبلاء بالمواقع الثانوية فقط (مازيغن) أو التي لم يكن بها أي عمران يذكر كفونتي وأمكدول، والتي كان البرتغاليون يتوقعون توسعها وازدهارها في ظل احتلالهم لها. وهذا ما تم فعلا بفونتي قبل أن يُحكم محمد الشيخ السعدي الحصار حولها، فقد أضحت خلال العقدین الأولین من القرن السادس عشر أهم مركز مغربي للحصول على الذهب (كان يبادل بالفضة وكانت عمليات الصرف تضمن ربحا لا يقل عن 14 في المائة) والعبيد (كانوا يضمنون للملك أهم الأرباح) والنحاس...

ومما يؤكد أن الملك البرتغالي كان يهدف من تبني هذه الطريقة الجديدة في التحكم في بعض المواقع تفادي صدام مفتوح مع الاسبان العناية التي أولاها لعمليات التشييد والبناء، والوسائل التي جعلها رهن إشارة المؤسسين. فقد أعطى تعليماته للمشرفين على التكوين بجزيرة ماديرا لتنفيذ كل مطالب (أزبوجا) «لتشييد حصن أمكدول»⁽²⁸⁾ وكذا لوكيله على مصايد «الغرب» البرتغالي بتزويد نفس الشخص بكل ما «يلزم لبناء الحصن الملكي»⁽²⁹⁾ وقد وصلتنا مجموعة من الايصالات التي احتفظت لنا بكميات الأقوات والزياد والمبالغ التي أرسلت إليه من جزيرة ماديرا التي كانت آنذاك خزان حبوب البرتغال. كما اعتادت الدولة البرتغالية جعل وسائل الدفاع عن الحصن، من مدفعية ودخيرة، رهن إشارة مالكة، ولو على شكل إعارة⁽³⁰⁾.

وبالطبع، أصبح «ديوغو دو أزبوجا» بعد تشييده للحصن المالك الشرعي له. وكان بإمكانه التخلي عنه للملك البرتغالي مقابل تعويض مالي يتفق عليه. فقد باع مؤسس حصن فونتي حقه للملك البرتغالي مقابل 5000 كروزادو، وهو مبلغ مهم، ومعاش سنوي يبلغ 100000 ريال، يؤدي في فاتح يناير من كل سنة، ابتداء من سنة 1513، طول حياته وحياة زوجته واحد أبنائهما⁽³¹⁾.

D.LOPES, 540. (28)

Loc.cit. (29)

Ibid, 455 (30)

Loc. cit. (31)

وخلال سنة 1510، تنازل (دو أزنوجا) عن ملكية حصن أمكدول مقابل معاش سنوي يبلغ 150000 ريال⁽³²⁾.

موقع الحصن :

لا يدع بريرا أي مجال للشك بشأن الموقع الذي شيد فيه الحصن. فقد ذكر أن ذلك تم بالساحل لا بالجزيرة. ولا عبرة بما ذكره بحار آخر «فلنتين فرنانديش (Valentin FERNANDES) من أن الاستقرار كان في الجزيرة لا بالساحل⁽³³⁾». وقد أدت بساطة الأثر لقصر مدة الاحتلال من جهة، وضخامة ما شيده السلطان سيدي محمد بن عبد الله فيما بعد من جهة ثانية، إلى اختلاف المؤرخين بشأن الموقع. فقد اعتقد E.DOUTTE أن الحصن البرتغالي شيد بالتلال المحاذية للمصب القديم لنهر القصبوب، حيث توجد بقايا حصن غير بعيد عن القصر المشيد من لدن السلطان سيدي محمد بن عبد الله. غير أن (Pierre de Cenival) يعتبر، اعتماداً على رسم يعود إلى سنة 1269 وآخر رسمه المهندس الفرنسي Theodore Cornut سنة 1767، أن الحصن المذكور بني كذلك في عهد نفس السلطان، ويرى أن البرتغاليين شيّدوا حصنهم بالمقدمة الصخرية التي تحمل اليوم الحاجز الغربي للميناء⁽³⁴⁾.

ومن الأكيد أن المغاربة لم يتركوا للبرتغاليين الوقت الكافي لهدم ما شيّدوه، بدليل أن بحارة إنجليز زاروا سنة 1577 أطلال ما خلفوه. ويبدو أن السلطان السعدي عبد الملك حاول الاستفادة من تلك المخلفات بعد إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليها (1628). ويعتقد de Cenival أن حصن أمكدول يشبه، من حيث موقع بنائه وشكله الخارجي، حصن أكوز البرتغالي المعروف اليوم بالصويرية القديمة⁽³⁵⁾.

(32) P. de CENIVAL, art.cit. 125

(33) P.de CENIVAL ET TH. MONOD; *Description de la côte d'Afriques de Ceuta au Sénégal par V.Fernandes (1506 1507)*. Paris, 1938

(34) P. de CENIVAL, art. cit. 121 et sq.

(35) Idem, 123

3) علاقة الحصن بالمناطق المحيطة به :

لم نتوصل إلا بإشارة واحدة لوجود نشاط تجاري بالموقع قبل احتلاله، إذ ورد ذكر تصدير الحبوب من أمكدول في إتجاه البرتغال.⁽³⁶⁾ ويفهم مما أورده بريرا أن سكان المناطق المجاورة، من عرب وبرابرة، عارضوا استقرار المسيحيين بموقع أمكدول، وأنهم سخرؤا كل الوسائل التي كانوا يتوفرون عليها لطردهم من هناك. ومعلوم أنهم توفقوا في ذلك، واستطاعوا طرد الغزاة سنة 1510، وبذلك يكون الاحتلال قد أدى إلى إقبار المحاولات الأولى لخلق نشاط تجاري بأمكدول.

ومن المعلوم أن الرواية الشفوية، التي لا يوجد لحد الساعة على الأقل أي مصدر مكتوب يزكيها، ترجع هذا الانتصار إلى الدور الطلائعي الذي لعبته قبيلة «رجراجة المجاهدة»⁽³⁷⁾.

وعلى كل، فقد نتج عن احتلال كل الثغور المغربية إعلان القبائل المجاورة والبعيدة أحيانا الحرب على الغزاة وإحكام الحصار عليهم، وإن لم يعط نفس النتيجة التي تمخضت عنها المقاومة المحلية بأمكدول. فكيف يفسر نجاح الجهاد الشعبي بموقع أمكدول وحده طالما أننا نعرف أن ما حرر من الثغور تم على يد محمد الشيخ السعدي بعد 1541، واعتمادا على وسائل عسكرية ضخمة ؟

تخبرنا بعض الوثائق بمحاصرة البرتغاليين بأمكدول خلال نفس سنة استقرارهم بها، إلى حد أن حاكم جزيرة ماديرا، الذي كان كبير الاهتمام بما يدور بالمغرب، أرسل على نفقته 35 محاربا لمساندة المحاصرين.⁽³⁸⁾ كما تم استيراد كميات من الحبوب من نفس الجزيرة للمدافعين عن الموقع. ويشير تقرير بعث به وكيل الملك التجاري بآسفي يوم 4 دجنبر 1510 إلى أن البرتغاليين أدخلوا الحصن بأمكدول، وأن انتصار المغاربة هناك شجعهم على ضرب حصار خطير على مدينة آسفي خلال الأسبوع الأخير من دجنبر 1510.⁽³⁹⁾

Loc.cit. (36)

Idem, 126 127 (37)

Idem, 124 (38)

Sources Inédites... I, pp 261 et sq. (39)

رأينا أن الملك أوكل لديوغو دو أزبوجا مهمة الاستقرار بموقع أمكندول مقابل امتيازات معينة حددتها عقدة بين الطرفين. وبما أن غاية المستفيد من هذا الامتياز كانت مالية فقط، فإن حساباته بينت له أن الاهتمام بأسفي المجاورة، والتي كانت تتخبط في حرب أهلية خطيرة، كانت المؤامرات والدسائس البرتغالية من أهم أسبابها، أفيد.

وهكذا لم يطل استقرار المؤسس بالحصن إلا أقل من سنة⁽⁴⁰⁾. فقد صادف استقرار (ديوغو) بأمكندول اغتيال قائد آسفي، عبد الرحمان، الذي وصل إلى السلطة على إثر انقلاب نظمه البرتغاليون، على يد علي بن وثمان ويحيى أو تغوفت. وقد التجأ الأعيان المساندون لولاء المدينة للتاج البرتغالي لحاكم أمكندول للحصول على مساندة ملكه لفرض كلمتهم على معارضتهم. وهكذا عاد ديوغو مع الوفد إلى آسفي، ومنها ركب البحر إلى البرتغال رفقة بعض الأعيان. وعاد من هناك إلى آسفي خلال الأسبوع الأول من شهر غشت 1509⁽⁴¹⁾ وخلال إقامته بالبلاط، عين عاملا وقبطانا على أمكندول بوثيقة مؤرخة في 27 يونيو 1507 بعد أن كان مجرد مالك للحصن. غير أن القبطان فوض سلطاته لصهره الذي بقي ينوب عنه بأمكندول. وبما أن (ديوغو) لعب دورا كبيرا في احتلال مدينة آسفي سنة 1508، فإن الملك البرتغالي عينه عاملا وقبطانا عليها حتى سنة 1510. وبعد إعفائه من هذه المهمة، ألحقت إدارة أمكندول، التي كانت مازال تابعة له، بآسفي. ومن خلال وثيقة تعيين Nicolau de Sousa عاملا على أمكندول مدى الحياة يوم 12 ماي 1510، نعلم أن الحصن كان ما يزال آنذاك بيد البرتغاليين. غير أن التحرير تم بعد ذلك ببضعة أشهر⁽⁴²⁾.

وقد سهلت بساطة ما شيده البرتغاليون هناك مهمة المجاهدين المغاربة الذين كانت الأسوار المنيع والأسلحة النارية الفتاكة (التي كانوا يفتقرون إليها) تعاكس نشاطهم وتضمن للغزاة حماية حقيقية ضد هجمات المغاربة. كما أن هؤلاء استفادوا

P. de CENIVAL, «Mogador», p 124; Sources Inédites, I, p 142. (40)

Idem, 125 (41)

(42) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي والشركة المغربية للناشرين المتحدنين، ط. ثانية 1983، ص 98

كثيرا من انشغال البرتغاليين بأحداث آسفي التي أولوها عناية خاصة، لأهميتها التجارية القصوى كما بينا ذلك من قبل.

ولعل اضطراب الأحوال بآسفي، وتورط الإسبان فيها، وركود أمكدول التجاري، وارتباط منطقة الشياظمة التجاري مع آسفي كما أكد ذلك الحسن الوزان⁽⁴³⁾، لعل كل هذه العوامل جعلت المسؤولين البرتغاليين يفضلون آسفي على أمكدول. فمن الأكيد أن البرتغاليين لم يكونوا يحتلون المرافئ المغربية بشكل عشوائي، أو عن طريق الصدفة. لقد كان التوسع بالمغرب يخضع لمخططات واضحة، وكانت السلطة المركزية توكل لكل ثغر من الثغور المحتلة مهمة معينة.

لقد سبق لنا في دراسة سابقة التأكيد على سيطرة العوامل الاستراتيجية في اختيار أهداف الغزو بشمال المغرب في حين سيطرت الدوافع التجارية المرتبطة بالتجارة بغرب إفريقيا أولا ثم بإنشاء إمبراطورية تجارية ثانيا سيطرة مطلقة على الغزو بجنوب أم الربيع⁽⁴⁴⁾. وكانت هذه الدوافع التجارية هي سبب تفضيل آسفي على أمكدول. فدون أخذ هذا العامل المهم في السياسة البرتغالية بالمنطقة في مطلع القرن السادس عشر، لا نفهم سر التخلي عن هذا الثغر في وقت كان المد في هذه المنطقة في بدايته، كما لا نفهم لماذا تمسك البرتغاليون بحصن فونتي الذي أممه الملك وعوض مالكة بعد مبايعة الشرفاء السعديين ومهاجمته سنة 1512⁽⁴⁵⁾، وكيف تم التخلي عن أمكدول ولم يبدل البرتغاليون أية محاولة لاسترجاعه بعد تحريره، خصوصا وأن الاشعاع العسكري والسياسي بلغ مداه جنوب تانسيفت بعد 1512 بعد أن استطاع الغزاة، الذين كان يحیی أو تعفوفت وقبائله إلى جانبهم، دخول وتخريب عدد من مدن وحصون المنطقة كتدنيست وأمغور... ويطرد القائم بأمر الله وابن الأعرج منها⁽⁴⁶⁾.

فإذا كان البرتغاليون الذين احتلوا آسفي وآزمور ومازيغن ونشروا نفوذهم

(43) أحمد بوشرب، دكالة..ص 281 وما بعدها

(44) Chronique de Santa Cruz...op.cit.p 24.

(45) R.RICARD, trad. Les Portugais au Maroc de Damiao de GOIS.Rabat, 1937, p 140

(46) Chronique de Santa Cruz...p 34 37 et notes; D. de GOIS, pp 172 215.

بعيدا في اتجاه الشاوية ودكالة والحوز وحاحة، لم يولوا أمكڭدول المحرر أي اهتمام، فإن ذلك يعني أنهم لم يكونوا يرون أية فائدة من إعادة السيطرة عليه، خصوصا وأن منتجاته كانت تسوق بأسفي، وأن هذه الأخيرة كانت منذ نهاية القرن الخامس عشر تزود منطقة الشياظمة بالأنسجة الأوروبية والتوابل ومواد الصباغة...

ومما يؤكد طرحنا هذا، التفاوت الواضح في قيمة التعويض المدفوع من لدن الملك البرتغالي لملك حصن أمكڭدول ومالك حصن فونتي، هذا التفاوت الذي يعكس المكانة التي كان كل واحد من الموقعين يحتله لدى السلطة المركزية بلشبونة. كما أن القائم بأمر الله استقر سنة 1513 على مقربة من أمكڭدول، بأفغال، ولم ترد أية إشارة إلى اهتمامه بالموقع المحرر منذ سنوات قليلة. ولما رغب إبنه في ربط علاقات مع التجار المسيحيين قصد الحصول على الأسلحة النارية، لم يعتمد قط على ميناء أمكڭدول، بل التجأ إلى ميناءين صغيرين، تطفنا بالشياظمة، وتركوكو بحاحة⁽⁴⁷⁾ (على بعد 14 كيلومتر شمال غرب أمكڭدير) ولم نتوصل ولو بإشارة واحدة إلى اعتماد السعدين على مرفأ أمكڭدول، حتى بعد تكاثر فلاحه قصب السكر بظهيره.

